

2- الحركات الإصلاحية الجهادية في غرب إفريقيا: برزت حركات إصلاحية وجهادية لعبت دورا هاما في تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء كان من أبرزها حركة الشيخ عثمان بن فودي، وحركة الحاج عمر الفوتي التكروري، وحركة الإمام ساموري توري، وحركة الشيخ أحمد لوبو⁽²⁾.

2-1- حركة الشيخ عثمان بن فوديو* الإصلاحية والجهادية: تعتبر حركة الشيخ عثمان بن فودي الفولاني

الأصل، والتي انطلقت من بلاد الهوسا أحج أهم الحركات التي شهدت إفريقيا الغربية التي حركت دورة الحياة في الكيان الإسلامي بالعودة إلى متابعة ومحاولة تطبيقه على نواحي الحياة⁽¹⁾، ولم يمض وقت طويل حتى تحولت هذه الحركة الاجتماعية الإصلاحية إلى حركة ثورية هدفت إلى إقامة الخلافة الإسلامية في بلاد السودان⁽²⁾.

2-1-أ- دعوته الإصلاحية: إن التكوين الديني للشيخ عثمان جعله يقتنع بضرورة اعتماد منهج إصلاحي

قاعدي للمجتمع معتمدا على تعليم المبادئ الإسلامية الصحيحة، حيث بدأ في العشرين من عمره بعقد حلقات التعليم لإحياء السنة وإماتة البدعة ونشر العلوم وتفسير القرآن، وجمع حوله صفوة المثقفين المسلمين محاولا خلق مجتمع مثالي في أوساط الهوسا على شكل المجتمع الإسلامي الأول، ويعتبر في وضعه السياسي مماثلا للمجتمع الأسبقا نَحْد الذي كان قبل ثلاثة قرون هذَّب وأصلح أحوال المسلمين في سنغاي.

وفي سنة 1775م بدأ الشيخ عثمان يخبر الناس أن إسلام ملوك الهوسا لم يكن الإسلام الحقيقي، وأنه في حاجة ماسة إلى الإصلاح حتى يمكن إدخال ممالك الهوسا في نهج الخط الإسلامي الصحيح باعتماد منهج دعوي إصلاحي قام على: دعوة الناس إلى ما فرضته الشريعة من أصول وفروع، وإتباع السنة و ترك البدعة، و إخذاد

البدع الشيطانية المخالفة للشرع، واستخدام أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، وتفسير العلوم بلغة الحاضرين لتسهيل الفهم⁽¹⁾.

وركّز الشيخ عثمان بن فوديو في دعوته على عنصرين: أولهما موضوع المرأة في النموذج الإسلامي والفرق بينه وبين المرأة في النموذج الجاهلي المتخلف داعياً المرأة إلى التحرر من الاستعباد الحقيقي الذي تعيشه في ظل الوضع السائد، وثانيهما استخدام الشعر والموشحات الدينية بالطريقة الشعبية المحببة إلى القلوب في قصائد ذات مضمون أخلاقي وعلمي وإرشادي باللغات المحلية، حيث كانت تنتقل بسرعة من ألسنة الدعاة إلى العامة خاصة أن الثقافة الإفريقية هي ثقافة حفظ لا تسجيل، ولقد اتخذ الشيخ في دعوته من بلدة دجل (Degel) مقراً لدعوته، كما اتخذ أعواناً له من تلاميذه ليساعدوه في دعوته ومنهم أخوه عبد الله⁽²⁾.

واستمرت مرحلة الدعوة من عام 1774م إلى 1804م أي حوالي 30 سنة شكلت مرحلة البناء الأخلاقي والفكري والاجتماعي، وانتهت المرحلة بتأسيس المجموعة الأساسية من الأتباع (الطلبة) بهدف نشر الصورة الجلية للإسلام وفضح علماء السوء الذين كانوا يرون الواقع المنكر فلا يعملون على تغييره بأي شكل من أشكال التغيير المتاحة⁽³⁾، وقد تصدى هؤلاء الأتباع المخلصون معه للدعوة البعض بنسخ كتبه ونشرها بين الناس، والبعض بالتنقل في أرجاء السودان الغربي والأوسط لنشر دعوته، ولما تعاظم نشاط الشيخ عثمان وازدياد أتباعه أقلق مضجع أمير جوبير (باوا) الذي حاول اعتراض طريقه لكنه أحس بخطورة الموقف فترك الشيخ وسبيله، وسعى إلى التقرب منه من أجل إسكاته، ووضع حد لانتشار سمعته وأفكاره، أو الحد منها على الأقل، فاستدعاه سنة 1788م بمناسبة عيد الأضحى محاولاً إرضاءه بمنحه (500) مثقال ذهب، فرفض الشيخ عثمان وطلب منه

عوضاً عنها الأمور الخمسة التالية:

- أن يسمح له بالتجول حراً في الإمارة لدعوة في سبيل الله.

- ألا يعترض سبيل أي شخص يستجيب لدعوته.

- أن يؤقر كل عالم يلبس العمامة.

- أن يطلق سراح المسجونين لقضايا سياسية.

- ألا يفرض ضرائب باهضة على الرعية.

فقبل الأمير شروط الشيخ عثمان مرغماً نظراً لتزايد أنصاره⁽¹⁾، وبعد وفاة حاكم غويير (باوا) 1794م خلفه حاكم

آخر يدعى نفاتا (Nafata) أدرك قوة أتباع الشيخ عثمان وأحس بالخطر على ملكه فما كان منه إلا أن أصدر

مرسوماً للحد من نشاط الشيخ عثمان تضمن ثلاثة أمور:

- عدم السماح لأي شخص باعتناق الإسلام إلا من ورثه عن أجداده.

- عدم السماح لأي بالوعظ إلا للشيخ عثمان.

- لا يسمح لأي أحد بلبس العمامة بعد تاريخ المرسوم، وألا تلبس المرأة الخمار⁽²⁾.

وأثار هذا المرسوم استياء أنصار الشيخ عثمان، وكان مؤشراً على تغير أسلوب العمل من الدعوة إلى الجهاد،

فعارضوه خاصة عبد الله بن فودي الذي أراد مواجهة هذه الإجراءات بالقوة، لكن الشيخ عثمان عارض استخدام

القوة لأنه في بداية طريق طويل ولقد تفادى الشيخ عثمان الحكام طيلة نشاطه الدعوي الذي دام ثلاثين (30)

سنة لضمان انتشار أفكاره الإصلاحية في أوساط الشعب، وتكوين قاعدة صلبة من المؤمنين بالتغيير والجهاد وقت

وجوبه، فقد كان إعلان الزعماء المسلمين الجهاد كفيلا بالتفاف الأتباع حولهم لأنهم رأوا في دعوة الجهاد واجبا للقتال ضد الوثنيين لإجبارهم على اعتناق الإسلام⁽¹⁾.

ومنذ عام 1795م بدأ أنصار الشيخ عثمان في التسلح، وقد شعر ملك جويير نفاته (Nafata) بخطورة الموقف بعد تسلح الشيخ عثمان، ولذلك عمل على التصدي لأتباعه وبعد وفاة نفته خلفه ابنه يونفا (Yunfa) فأستمر في عداائه لعثمان وحاول التخلص منه وقتله، و أمره بالرحيل من دجل (Degele) فأمر الشيخ عثمان أتباعه بدوره بالمهجرة⁽²⁾ إلى بلدة غودو (Gudu) على بعد 48 كلم شمال غرب دجل، وكان ذلك في 21 فيفري 1804م وكان الشيخ عثمان قد عقد ميثاقا في دجل قبل رحيله منها مع أتباعه تعهدوا فيه على الجهاد ضد الأعداء، وأصدر الشيخ وثيقة أهل السودان التي صارت إعلانا رسميا للجهاد، وأقرت هذه الوثيقة مبادئ منها: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب إجماعا، وأن الهجرة من بلاد الكفار واجبة إجماعا، وأن الجهاد واجب إجماعا، وأن قتال البغاة واجب إجماعا⁽³⁾، وبهذه الوثيقة أنتقل الشيخ عثمان وأتباعه من مرحلة العمل على نشر الدعوة إلى مرحلة الجهاد وبناء الدولة الإسلامية.

3-1- ب- جهاد عثمان بن فوديو: في 04 جوان 1804م تقدمت قوات الجهاد بزعامة عبدالله بن فودي

الذي أخلى مواقعه في جودو توقعها لهجوم من سلطان جويير واتجه إلى بحيرة لبحيرة تابكين كوتو (Tabkin kwatto)⁽⁴⁾ شمال بلدة دجل⁽⁵⁾، حيث أطيح المسلمون على قوات السلطان الجوييري يونفا؛ وفي عام 1805م عاود الأخير الهجوم من جديد على قوات الشيخ عثمان وجماعته، ودارت معركة تسونسو التي هزم فيها جيش

الشيخ عثمان في البداية لكنهم صمدوا، واستمرت الحرب سجّالا بين الطرفين دون تفوق طرف على الآخر، وتمكنت خلالها قوات الشيخ عثمان من السيطرة على إمارة كبي(Kebbi)، التي اتخذها عثمان عاصمة لقواته، وتوالى سقوط إمارات الهوصا (الحوصا) في أيدي جيش الشيخ عثمان حيث سقطت زاريا عام 1805م ودخل عاصمة الإمارة وتسمى الكالوا في عام 1808م وتم قتل السلطان يونفا مع عدد من أتباعه، وبهذا انتهت مقاومة الوثنيين وتوافدت القبائل إلى معسكر الشيخ تعلن الدخول في الإسلام وبهذا توسعت إمبراطورية الفولا في، وتوسعت رقعتها، وتشكّت لأول مرة وحدة سياسية بها، وانتقل الشيخ إلى مدينة سيفاوا عام 1809م، بينما استقر ابنه مُحمّد بلو في مدينة سوكونو⁽¹⁾، ومن مدينة سيفاوا انتقل واستقر في مدينة سوكونو التي اتخذها عاصمة له ثم قسم مملكته إلى قسمين: قسم شرقي تحت سيطرة ابنه "مُحمّد بللو" وقسم غربي تحت سيطرة أخيه "عبدالله"، واكتفى هو بالزعامة الروحية متخذاً من مدينة سوكونو مركزاً للدعوة إلى الإسلام، كما عكف على التصوف وتأليف الكتب الداعية إلى الرشاد والابتعاد عن الانحراف، ومنها على سبيل المثال نذكر: أصول الولاية إحياء السنة- بيان البدع- ترغيب العباد- الجهاد.... وغيرها⁽²⁾ إلى أن وافته المنية عام 1817م، وأقيم له ضريح ومزار بمدينة سوكونو، وكان أول من خلفه ابنه مُحمّد بللو، ولم يعتمد الفولا في بعد ذلك على الجهاد وحده في نشر الإسلام بل سلكوا طريق الدعوة في أغلب الأحيان ولم يلجأوا للجهاد إلى عند الضرورة. ولقد لعب أبناء الشيخ وأحفاده دوراً بطولياً ضد الاستعمار الأوروبي، وكان سقوط دولتهم في يد البريطانيين عام 1903م⁽³⁾، وهذا بعد مقتل الخليفة الطاهر آخر خلفاء أسرة عثمان، وقد هاجر من بقي من أسرة عثمان بن فودي برئاسة حبانو بن سعيد بن فودي إلى السودان للانضمام إلى الثورة المهديّة التي قامت ضد الوجود البريطاني في السودان⁽⁴⁾.

ومن مظاهر التجديد والاصلاح في دولة الشيخ عثمان بن فودي من خلال الآتي:

- محاربة الوثنية والبدع والخرافات في المعتقدات والعبادات.
- جددت دعوته نظام الحكومة الإسلامية بعد انصاره على حكام بلاد الهوسا، حيث أقام دولة إسلامية قسمها إلى ثلاثين 30 إمارة طبقت الشريعة الإسلامية على مذهب الإمام مالك.
- أقام الشيخ عثمان في كل قرية مسجدا تحت إشراف معلم.
- أعادت دعوته الإصلاحية أجواء الأمن والاستقرار ولم تشمل المنطقة، حيث تجمعت تحت رايها عدة ممالك من بلاد الهوسا، وصُبغت المنطقة بالطابع الإسلامي الذي لا يزال يميزها حتى اليوم مثل نيجيريا التي أصبحت أكبر دولة إسلامية في إفريقيا بفضل تلك الحركة الإصلاحية⁽¹⁾.